الفيلسوف والمفكر النمساوي هانس كوكلر Hans Köchler، الرئيس السابق لقسم الفلسفة بجامعة إنزبروك النمساوية، ورئيس المنظمة العالمية للتقدم بفيينا، وهي منظمة مستقلة تستشيرها منظمة الأمم المتحدة في الكثير من القضايا، هو أحد المفكرين الغربيين القلائل الذين تبنوا في مشاريعهم الفكرية والعملية-السياسية الوقوف بجانب الشعوب الضعيفة.

تبنى القضية الفلسطينية منذ عقود من الزمن، وهو صديق مخلص للعالم المسلم برمته، حيث يحاضر باستمرار وحصل على تشريفات متميزة من الكثير من هذه الدول.

متخصص فلسفيا في الفينومينولوجيا، ومن أبرز العارفين والمؤولين لفلسفة هيدجر. كما أنه عكف في ربع القرن الأخير على فلسفة القانون ونقده لها، وسلوك الغرب المزدوج في تطبيق القانون الدولي. ويعتبر مؤلفه «العدالة الجنائية الدولية في مفترق الطرق: عدالة عالمية أم انتقام شامل؟» (مترجم للعربية أيضا) مرجعا هاما في هذا الإطار.

قبل مشكورا هذا الحوار الخاص بجريدة «الأخبار»، مذكرا إياي بالمسؤولية الضخمة التي على عاتق أبناء الأمة المسلمة حاليا، وخصوصا المتعلمين منهم، للتعريف بقضايا أمتهم والذود عنها بطرق حضارية.

حوار خاص مع الفيلسوف النمساوي هانس كوكلر

كوكلر: التدخل الأوروبي في شؤون الدول العربية خطأ فادح

قال إنه لا يُتوقع أن تلعب أوروبا دوراً مستقلاً في السياسة العالمية في المستقبل القريب

أجرى الحوار بالنمسا: د. حميد لشهب

■ في العديد من تصريحاتكم ومقابلاتكم الصحفية والإعلامية خلال «الربيع العربي»، أصدرتم وقتها نوعاً من التحذير «النبوءة»: «انفجار» المناطق العربية التي اندلعت فيها هذه «الانتفاضات». كيف تقيمون الوضع اليوم؟

لا يزال الوضع في بلدانٍ ما سمي بـ«الربيع العربي» غير مستقر اجتماعيا وسياسيا. بشكل عام، تدهور الوضع المعيشي – اقتصادياً أيضاً – في هذه البلدان. في ليبيا وسوريا واليمن لا توجد هنالك مؤشرات على كيفية استعادة وحدة الدولة. لقد أدى التدخل الأجنبي في هذه النزاعات إلى جعل الوضع أكثر كارثية، كما زاد من صعوبة إيجاد حل عملي متين. بعد عقد من الفوضى، أصبحت أوضاع حقوق الإنسان والديمقراطية محفوفة بالمخاطر في جميع هذه البلدان، لا سيما في أكبر دولة عربية من حيث عدد السكان. والاستقرار غير متوقع في المستقبل المنظور. والحكومات التي أشعلت الانتفاضات من الخارج أو تدخلت بشكل مباشر في النزاعات المسلحة (في سوريا وليبيا واليمن) هي المسؤولة بشكل أساسي عن مأساة السكان في هذه البلدانِ.

كان الاتحاد الأوروبي بالخصوص مخطئاً في حساباته في ما يتعلق بهذه الانتفاضات. ما جناه منها كانت تلك الجحافل من اللاجئين التي تقاطرت عليه من جميع الجهات. هل الاتحاد الأوروبي قادر على اتباع مساراته الدبلوماسية والسياسية بشكل مستقل، أم أنه يعاني أيضاً من «القمع الأمريكي»؟

لقد كان من الخطأ الفادح أن تتدخل بعض الدول الرائدة في الاتحاد الأوروبي، مثل إنجلترا وفرنسا، بشكل نشط ومنفرد في شؤون الدول العربية المعنية. وينطبق هذا بالخصوص على التدخل في ليبيا وسوريا. وتدفقات الهجرة غير المنضبطة منذ عام 2015 هي نتيجة غير مباشرة لهذه الميكافيلية الأوروبية الفاشلة، أي سياسة «تغيير الأنظمة»، التي لم تأخذ في عين الاعتبار العواقب المتوسطة والطويلة المدى في مجال الجغرافيا السياسية – وكذلك بالنسبة لأوروبا نفسها. أدى فراغ السلطة الذي نشأ في ليبيا نتيجة التدمير الدائم للدولة إلى جعل البلاد منطقة عمليات للجماعات الإجرامية التي تنظم الاتجار بالبشر من مناطق خارج بلدان «الربيع العربي» وتوجه تدفقات الهجرة إلى أوروبا. وكما هو الحال في التعامل مع الجائحة الحالية، أثبت الاتحاد الأوروبي أيضاً أنه غير كفء للغاية في تعامله مع أزمة اللاجئين والهجرة. إنه مثل التلميذ الساحر لجوته: لم يعد باستطاعة المرء ترويض الأرواح التي نادى عليها. تم القضاء على بعض حكومات هذه البلدان، لكن المرء لم يكن قادرا على إنشاء نظام جديد في هذه البلدان. في كل من ليبيا وسوريا، كانت الولايات المتحدة هي الفاعل الرئيسي للتدخل الأجنبي. وكما في حربي الخليج الأولين، لعبت أوروبا دوراً داعماً ولكن ثانويا. وفي ما يتعلق بعواقب هذا التدخل، لن تتأثر أمريكا مباشرة، بقدر ما دفعت أوروبا الثمن بسبب قربها الجغرافي من منطقة الأزمة. وهنا أيضاً، أوضح الفشل الأوروبي أنه لا يمكن أن يُتوقع من أوروبا أن تلعب دوراً مستقلاً في السياسة العالمية في المستقبل القريب.

■ يبدو أن الفلسطينيين فقدوا حقهم في أرضهم ودولتهم. هل ما فرضه ترامب على هذا المستوى هو «استحقاقه» أم أنه كان دائماً جزءاً من سياسة الإدارة الأمريكية؟

إن حق الفلسطينيين في إقامة دولتهم مكفول من خلال حق تقرير مصير الشعوب، وهو جزء من القانون الدولي العام وقد أكدته عدة مرات قرارات الأمم المتحدة. والسؤال حاليا هو ما إذا كان ممكنا إنفاذ هذا الحق غير القابل للنقاش، أي المفروغ منه. أصبح الأمر قائماً منذ مبادرات الرئيس الأمريكي السابق ترامب، حتى ولو لم يتم تنفيذ خطته الأصلية، خلال فترة ولايته، في ضم مناطق كبيرة من الأراضي الفلسطينية. والجدير بالذكر والملاحظة هو أن إدارة بايدن، التي تريد عكس كل ما بادر إليه ترامب تقريباً، لا تريد أن تمس ما يسمى بـ«معاهدات إبراهيم». وهذا مؤشر واضح على أن هناك مصالح في أمريكا، مستقلة عن تغيير الحكومة، تصب في مصلحة دولة الاحتلال في فلسطين. بشكل عام، يمكن القول إن خطط السلام التي تتجاهل حقوق طرف واحد لا تستحق هذا التصنيف.

■ يبدو أيضاً أن الفلسطينيين قد تُركوا لوحدهم مع مشكلتهم بعد أن تخلت عنهم معظم الدول العربية. ما الخيارات التي لا تزال أمام الفلسطينيين للحصول على حقوقهم؟

إن الوضع مثير للقلق للغاية. فبدون دعم العالم العربي، ستكون جميع النداءات الهادفة إلى الاعتراف بحقوق الفلسطينيين غير فعالة في نهاية المطاف. إن الأمم المتحدة عاجزة في هذا الشأن، فقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ليست ملزمة قانونيا، ومجلس الأمن، الذي لديه سلطة الأمر بإنهاء الاحتلال، مشلول بفعل الفيتو الأمريكي. لا يُقصد هنا قرار مجلس الأمن 242 الذي يُذكر باستمرار، على الرغم من أنه لم يُتخذ كإجراء قسري على أساس الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، بل كان مجرد اقتراح في إطار التسوية السلمية للنزاعات. في ظل انقسام الدول العربية والشلل الناتج عن ذلك في جامعة الدول العربية، لا يمكن للفلسطينيين إلا أن يأملوا في حشد المواطنين العرب أو دعم دول قوية ومستقلة خارج المنطقة، قد تهتم بدولة للفلسطينيين مستقلة، بمعنى توازن القوى في المنطقة. يجب أن تستفيد فلسطين من حقيقة أنها معترف بها من قبل الغالبية العظمى من دول العالم وأن تكثف دبلوماسيتها في جميع أنحاء العالم. ويجب في هذا الإطار أن تلعب المنافسة الحالية على ريادةٍ العالم بين الولايات المتحدة وروسيا والصين دوراً في مداولات الدبلوماسية الفلسطينية. على أي حال، لن يكون هناك استقرار في المنطقة على المدى الطويل حتى يتم حل قضية فلسطين.

■ يقدم الغرب إيران على أنها تهديد حقيقي للنظام العالمي. ما الذي حققته إيران في تجربتها مع الغرب، بالمقارنة مع العرب؟

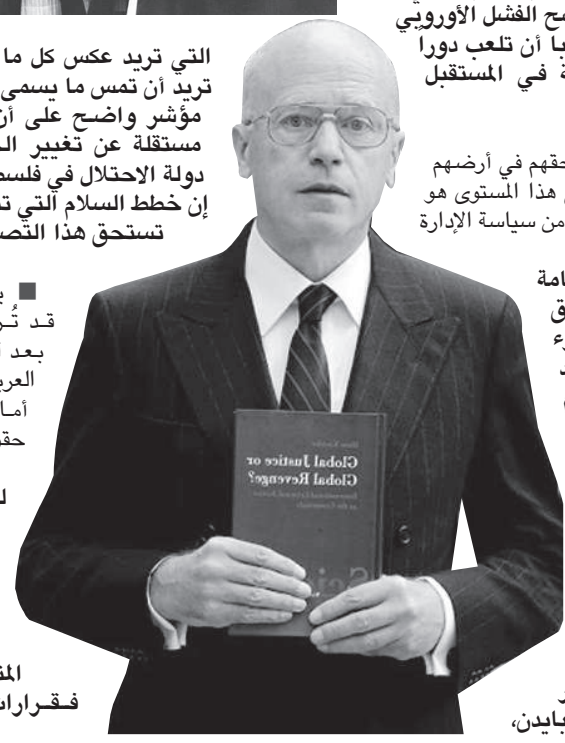

إن الغرب يبالغ في التهويل. ما يمكنني قوله من موقعي هنا هو أن إيران تسعى جاهدة من أجل الاستقلال الثقافي والعلمي والتكنولوجي، مثل كل الدول الكبرى سواء في الشرق أو الغرب. وتدخل الغرب كما تم توثيقه على سبيل المثال من خلال الانقلاب على رئيس الوزراء محمد مصدق الذي نظمته المخابرات الأمريكية والبريطانية عام 1953، أدى إلى تصلب الجبهات على مدى عقود. يتمثل الخطر المزعوم لإيران على النظام العالمي في المقام الأول في حقيقةٍ أن الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، والتي هي دائماً متحيزة في قضايا الشرق الأوسط، لا يريد قبول إيران كقوة إقليمية. وبالمناسبة، فإن القضية النووية توزن بمكيالين، حيث إنه حتى الآن لم يتم فعل أي شيء على الإطلاق لتنفيذ مطالب الأطراف في معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية بفرض حظر أساسي على أسلحة الدمار الشامل في الشرق الأوسط.

ربما يكون الاختلاف عن العالم العربي، الذي تلمحون إليه، مرتبطاً أيضاً بحقيقة كون إيران دولة قومية موحدة، في حين أن العرب منظمون في عدد كبير من الدول التي تتنافس مع بعضها البعض -بل عادى بعضها البعض-، على الرغم من قدراتها الكبيرة بشريا واقتصاديا (في نطاق روابط البحث والتطوير الاقتصادي والتكنولوجي وما إلى ذلك)، وهي قدرات لا تستفيد منها على الوجه الأمثل حاليا، ولا يلوح في الأفق تغيير في هذا الوضع المصيري تماما.

■ ما مخرج الأزمة بين إيران والغرب في نظركم؟

لا أريد الإدلاء هنا بأي توقع، لكنني عموماً لست متفائلا. وحتى لو اجتمع المرء الآن – بعد النهاية المؤقتة لعهد ترامب – مرة أخرى في فيينا وتفاوض من أجل إحياء الاتفاق النووي، فإن هذا لا يغير المصالح الجيوسياسية طويلة المدى. فالدول الأكثر نفوذاً في السياق الغربي – ليس فقط الولايات المتحدة، ولكن أيضاً دول منطقة الشرق الأوسط – لا تريد قبول إيران كقوة إقليمية تحت أي ظرف من الظروف.

■ باعتباركم من الفلاسفة الغربيين القلائل الذين تربطهم صداقات فكرية وشخصية مع عموم العالم الإسلامي، كيف تنظرون إلى العالم العربي اليوم؟

يقف العالم العربي في نقطة تحول. فبسبب الانقسام المستمر لدول الجامعة العربية، نشأ وضع الآن – بعد زعزعة الاستقرار واسعة النطاق التي سببها «الربيع العربي» الفاشل–، يمكن اعتباره من طرف القوى خارج المنطقة كدعوة للتعامل مع العرب وفقاً للمبدأ الروماني القديم divide et impera (فرق تسد)؛ ويرجع ذلك إلى المبادرات الأمريكية في السنوات الأخيرة مثل الاعتراف الفعلي بالضم غير القانوني للقدس والجولان وإطلاق «خطة سلام» مع التنازل عن الأراضي لقوة الاحتلال، وبالتالي أصبحت دولة فلسطين غير قادرة على الاستمرار، وعقد «اتفاقيات السلام» أحادية الجانب مع دول المنطقة، وبالتالي أصبحت «مبادرة السلام العربية» لعام 2002 في خبر كان. هذه الأمثلة كلها تصب بوضوح في سياسة «فرق تسد» التي نهجها وينهجها الغرب تجاه الدول العربية.

فالمنافسات التاريخية العربية الفارسية في الخليج، وبالنظر إلى الحروب الأهلية في سوريا واليمن، يدعم التصرف وفق القول المأثور «عدو عدوي صديقي»، تقضي على آخر مساحة للحرية من أجل استراتيجية مستقلة في الشؤون العربية الحاسمة (مثل فلسطين). وهذا يقوض بشكل عام شرعية الموقف العربي تجاه العالم غير العربي. أتذكر بحنين كبير السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، عندما كان لا يزال هناك شيء مثل روح التفاؤل العربية.

وانتهى ذلك التفاؤل بشكل مفاجئ بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ونهاية القطبية السياسية العالمية. واليوم، تتم إعادة تأسيس خطوط الصدع القديمة والتبعيات التي كان يعتقد المرء أنه تغلب عليها مع نهاية إنهاء الاستعمار.

■ لأنكم تكتبون كثيراً باللغة الإنجليزية، فإن تأثيركم الفكري واضح على نطاق واسع في البلدان الإسلامية في جنوب آسيا والجنوب الشرقي لها وفي البلدان الإسلامية في الاتحاد السوفياتي السابق. والدليل على ذلك هو حضوركم الفكري والفيزيقي في هذه البلدان منذ سنوات. هل هناك اختلافات بين هذه الدول والعالم العربي على المستوى الثقافي؟

في ما يتعلق بدول ما بعد الاتحاد السوفياتي، من الواضح أنه بعد انهيار الاتحاد كان على هذه الدول أن تعيد بناء هويتها تدريجيا. ففي الفراغ السياسي والاجتماعي والثقافي الناجم عن انهيار النظام الشيوعي، كانت هناك عودة تدريجية للتقاليد الوطنية المنسية (في سياق الشعوب التركية) ولا سيما الدين كعامل يخلق الهوية. عاشت هذه لفترة طويلة، سواء أكانت تريد ذلك أم لا في «تعايش» مع النموذج السوفياتي العلماني للدولة والمجتمع. ومن الواضح أن إعادة التفكير في الهوية الخاصة لا يمكن أن تتم بدون احتكاك. من واقع تجربتي الشخصية، فإن بلدان فضاء ما بعد الاتحاد السوفياتي قد طورت حساسية خاصة لضرورة الحوار بين الثقافات، وعلى وجه التحديد بسبب التغيير المفاجئ في النظام. ويتجلى هذا بشكل خاص في المبادرات المتنوعة لأذربيجان وكازاخستان في مجال الحوار الإسلامي الغربي، ولكن أيضاً بين الأديان.

في ما يخص جنوب آسيا والجنوب الشرقي لها، بالإضافة إلى التأثير التاريخي للقوى الاستعمارية الغربية (إنجلترا وهولندا)، كان للقرب من الحضارات الهندية (الهندوسية) والصينية (خاصة الكونفوشيوسية) تأثير على تأسيس الهوية. ومع ذلك، فإن الاختلافات الاجتماعية والثقافية بين دول المنطقة كبيرة جداً أيضاً. والشيء المشترك بين هذه الدول جميعاً هو أنه في أعقاب العودة الأقوى للهوية الثقافية التي بدأت في جميع أنحاء العالم الإسلامي منذ نهاية الحرب الباردة، نما التأثير العربي (من حيث التقاليد، وليس في السياسة). وتلعب إندونيسيا دوراً خاصاً في تطوير موقع جديد للإسلام في عالم العولمة الحديث.

بعد انهيار النظام الشيوعي، كانت هناك عودة تدريجية للتقاليد الوطنية المنسية (في سياق الشعوب التركية) ولا سيما الدين كعامل يخلق الهوية

هل الاتحاد الأوروبي قادر على اتباع مساراته الدبلوماسية والسياسية بشكل مستقل، أم أنه يعاني أيضاً من «القمع الأمريكي»؟

ليبيا أصبحت منطقة عمليات للجماعات الإجرامية التي تنظم الاتجار بالبشر من مناطق خارج بلدان «الربيع العربي» وتوجه تدفقات الهجرة إلى أوروبا